من حياة شعيب عليه السلام

«١»

الناظر المتبصر في تاريخ الإنسانية ـ عموماً ـ يجد أن الرواد الأمناء ـ وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا في سلوكهم وتصرفاتهم ترجماناً أميناً للمبادىء التي يدعون إليها الناس، والقيم التي يريدون لها أن تحكم مسيرة المجتمع.

وترى كل واحد منهم ضنيناً بنفسه أن يكون في عمله والنهج الذي يسلكه وهو يزاول شؤون الحياة، على شيء من المخالفة لما يأمر به أو ينهى عنه.

ولما كان الرسل والأنبياء عليهم السلام يصدرون عن منبع مبارك واحد في التوحيد ومكارم الأخلاق فإن هذا السلوك منهم يشدُّنا إلى العلم بأن قاعدته التي يقوم عليها قضية كبرى قررها القرآن الكريم وعاتب من يتجاوزونها إلى غيرها فقال تعالى في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[الصف: ٢-٤].

وهكذا يرى علماء التربية والتاريخ والاجتماع ـ نتيجة المعاناة والتجربة ومسيرة التاريخ وما تفيض من عبر ودروس ـ أن الدعوة إلى الخير وما فيه الصلاح والإصلاح: بالسلوك القويم الداعي إلى حسن التأسي لكونه يترجم دعوة الرائد إلى عمل: قد يكون أبلغ في التأثير وتحقيق المراد من الدعوة القولية ـ وإن كانت هذه لا بد منها للكشف عن المراد ـ؛ على أن الجمع بينهما هو الأولى ويكون خيراً على خير.

والحق أن الأمة التي تحرص بجدية على بناء ذاتها، وتجاوز الصعاب التي قد تكون تكدست عبر السنين على طريقها؛ لا بد أن يكون الرواد فيها على هذا المستوى من عدم مخالفتهم عملاً وسلوكاً عما يدعون إليه وهم يرتادون الطريق، وإلا ساءت الحال وتفاقمت المشكلات، والعكس بالعكس. والوقائع الدالة على ذلك عبر التاريخ كثيرة وفيرة.

ونحن أمة تعمل على استئناف رحلة التمكين وذاتية البناء، بعد أن مال بها الزمان لأسباب داخلية وخارجية معاً، ولكننا ـ بحمد اللّه ـ لا نبدأ من الصفر ـ كما يقال ـ؛ فلدينا من معالم الهداية في كتاب اللّه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ـ ويا لها أمانة ثقيلة ـ وسيرة السلف الصالح الذين ضربوا في كل ميدان: ما يغني ويقني، أن لو كنا جادين في الحرص على تلك الهداية والانتفاع بالوقائع، مضموماً إلى ذلك الاعتبار بالعظات والدروس.

وفي سورة (هود) واحد من تلك المعالم القرآنية يحدِّد للأمة مرتكزاً من مرتكزات خطة شعيب عليه السلام؛ وذلك المرتكز: هو أن شعيباً ـ وهو يدعو إلى التوحيد واستقامة السلوك ـ لا يمكن أن يفعل أمراً نهى قومه عن فعله، أو أن يترك أمراً أمرهم هو بفعله؛ ذلكم قول اللّه جل ثناؤه على لسانه عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود: ٨٨].

يقول شعيب لقومه: أرأيتم يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي ووضوح رؤية فيما أدعوكم إليه وقد أوتيت النبوة دونكم والرزق الحلال ـ وهذا استفهام تقريري ـ ما الذي يكون منكم؟ وما أريد أن أنهاكم عن فعل شيء وأخالف في السر فأفعله خفيةً عنكم، أو ألتمس له المخارج والمداخل من هنا وهناك حين تتعدد العناوين للتعمية والمضمون واحد.

قال قتادة ـ كما روى الإمام الطبري ـ: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه. وروى شيخ المفسرين عن سفيان الثوري قوله في الآية: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم.

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ سيِّد الوقافين عند هذا الخلق المكين وتأسّى به صحبه الكرام في هذا، وكان دائماً سمة من تبعوهم بإحسان، وما يزال أهل الرضى إلى يوم الناس هذا حريصين على أن يكونوا من أهل ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

أورد الحافظ ابن كثير ما أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق رحمه اللَّه قال: جاءت امرأة إلى عبد اللَّه بن مسعود فقالت: تنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، قالت: فلعلّه في بعض نسائك، فقال: ما حفظتِ وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ وقال عثمان بن أبي شيبة في «المصنف»: حدثنا جرير عن أبي سليمان الضبي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز رحمه اللَّه فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾» الواصلة: هي التي تصل شعرها بشعر آخر زور، والمراد بالنهي عنها: النهي عن فعلها. وقد حذر الرسول ﷺ تحذيراً شديداً من ذلك وأمثاله.

هكذا حمل إلينا المعلم القرآني الإعلان الواضح الصريح الذي كان من أمضى أسلحة العبد الصالح شعيب في مواجهة عناد قومه ومكابرتهم، وهو أن يكون عمله صورة مثلى لما يدعوهم إليه من فعال البر ومكارم الأخلاق؛ حتى كأن هذا الذي يستنفد وقته في دعوتهم إليه وترغيبهم في فعله ـ سلوكاً، وفعلاً للخير وحسن تعامل فيما بينهم، وبعداً عن التظالم والغش ـ: قوةً متحركة فيه لا تنفصل عنه حيثما حلَّ وحيثما ارتحل. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

ثم أتبع هذا بقوله:﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ذلك شأن المصلحين الذي يرتادون للأمة طرائق البناء الذي يحفظ هويتها ويصون وجودها، والعلاج الذي يصوِّب الخطأ ويشفي - بعون اللَّه - من الأدواء - وما أكثرها -. ولا يتوانون عن تنمية خصائص المتابعة في أبنائها دون يأس، والقدرة على تخطي الصعاب دون طلب للعافية أو فتور عن التصديق الجازم بما عند اللَّه للصابرين المخلصين.

إن غايتهم التي ينشدون - وهم يدعون إلى الحق - هي الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وهو أمر يحتسبونه عند اللَّه ليكون زلفاهم إلى مرضاته سبحانه. وهذا ما يهوِّن عليهم الصعاب ويحول دونهم ودون التوقف، وهم على طريق تبدأ بالمكاره وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. وهذا قبس من نور ما يشرق به على قلوبهم قوله تعالى على لسان شعيب:﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

هذا: وليس من معاد القول ومكروره التذكير بأن على من أولاهم اللَّه أمانة الريادة في البيت والمسجد والمدرسة والجامعة ومؤسسات الإعلام وسدة الحكم وما وراء ذلك من مرافق الحياة في الأمة: أن يُولوا هذه العظة من دعوة العبد الصالح شعيب عليه السلام بالغ عنايتهم، كيما تكون الريادة في حقيقتها تفانياً في العامل المتصل بالإيمان، وقدوة في السلوك، وبعداً عن مخالفة المبادئ والقيم في أنفس أولئك الرواد. ومن هم في مواقع المسؤولية، في أنفسهم وفي ذويهم.

وتلك هي بعون اللَّه ضمانة المسيرة الخيرة من عوامل التخلخل والهدم، سواء أكان ذلك من داخل الأنفس أم من خارجها، واليقين بضرورة أخذ الحذر في ميادين المواجهة وإعداد القوة المستطاعة عملاً بأمر اللَّه، وهو - جل شأنه - حسبنا ونعم الوكيل.

درس في البناء.. من حياة شعيب عليه السلام

«٢»

هذا كلام موصول بما كنا بسبيله من قريب، من الاستنارة بهدي المعلم القرآني في شأن العبد الصالح شعيب عليه السلام وما يحمل منهجه في الدعوة من عبر وعظات تتصل بكيان الفرد والجماعة.

ولعل مما يحسن استذكاره أن الذي أعلنه شعيب في قومه: لم يقتصر ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ على أنه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، وأنه لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع.

ولكنه أضاف إلى ذلك قضية جوهرية أخرى، هي إعلانه الإيماني أن اللَّه هو الموفق عليه التوكل وإليه الإنابة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

لقد قدَّم هذا النبي الكريم لقومه ما فيه مقنع لمن أراد مقنعاً؛ فكان في عمله وسلوكه على غاية التطابق مع الذي يقوله ويدعو إليه، وأخذ على نفسه العهد أنه فيما يدعو قومه أمراً ونهياً وإرشاداً لا يهدف إلا إلى الإصلاح ما استطاع، ولا يبغي إلا بناء المجتمع الصالح الذي يحيا بعقيدة أبنائه، وجهودهم المخلصة، ويتحرك بالأخلاق والتعاون على ما فيه خير الجميع.

وبذلك تنمو طاقات ذلك المجتمع الفاعلة، التي تضمن ـ بإذن اللَّه ـ استمرار النمو الخيِّر، والقدرة على درء ما يعترض من عوامل تعوق النمو والازدهار، أو تنحرف بالمنهج عن سبيله القويم.

وهذه المهمة الشاقة التي حمل عبئها شعيب عليه السلام، تلك التي تلقى العنت من الجاهلين، والمناهضة ممن هانت عليه عقولهم وأخلدوا إلى الأرض فاستعبدتهم الأهواء والشهوات، كما تُقابَلُ ـ شأن دعوات الإصلاح الحقيقي دائماً ـ بالفتنة واللدد في الخصومة وألوان الأذى من أولياء الشيطان الطغاة والظالمين..

هذه المهمة التي تحيط بها تلك الملابسات: لا بد لها ـ مع الأخذ بالأسباب الأرضية ـ من صدق التوكل على اللّه الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وحسن الرجاء في توفيقه وعونه؛ فهو الملاذ عند الشدة ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، والملجأ عند الاضطرار، وصريخ أهل الإيمان عند الكرب؛ فما توفيقهم إلا به، وما عونهم إلا من عنده، عليه يتوكلون، وإليه ينيبون.

وذلك ما قاله ـ بلغة الواثق المطمئن ـ شعيب عليه السلام، وكان هذا القول لبنة عظمى من لبنات المنهج عبّرت عن صلة هذا العبد الصالح بربه، وقربه منه، وصدق اعتماده عليه. أرأيت!! ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وقد عرضت من قبل لما روى ابن أبي شيبة في «المصنف» عن أبي سليمان الضبي ما يدل على تفاعل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مع تلك المقولة المباركة التي أشرق بها قلب شعيب عليه السلام وكان لها ما لها من انعكاسات على منهجه في الدعوة إلى اللّه.

قال أبو سليمان الضبي: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها. «**وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾**».

ولعل من الخير أن نعرض لشيء مما دعا إليه هذا الرسول الكريم قومه؛ فقد دعاهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم.. أجل: دعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، وإلى أن يحسنوا التعامل فيما بينهم، فلا ينقصوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يبتعدوا عن الفساد في الأرض، وأن يعلموا أن ما

يعطاه الإنسان من الرزق الحلال ـ مهما قلّ ـ خير من هذا الفساد الذي هم واقعون فيه من تظالم فيما بينهم؛ حيث يحيف الأقوياء على الضعفاء. وينحسر التراحم عن المجتمع، ويحلُّ الحقد وانعدام الثقة محلَّ الود والرحمة والتعاون المجدي.

كما أنه حذرهم عذاب اللَّه إن أعرضوا عما يدعوهم إليه في يوم لا مردَّ له من اللَّه.

وهذا الذي دعاهم إليه: يعني بناء الفرد بالعقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد التي تشرق آثارها الطيبة الفاعلة على عمل الإنسان وتعامله مع الآخرين، مصحوباً ذلك بالوازع الداخلي خوفاً من اللَّه ويوم الحساب.

كما يعني بناء المجتمع على تكريم الحق، والبعد عن الكسب الحرام، وانضباط التعامل المالي والاقتصادي بضوابط تحفظ الحقوق، وتصون كرامة الإنسان، وتحفز على تنمية الثروات من طريق الكسب المشروع.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾[هود: ٨٤-٨٦] وفي تحذيرهم سوء العاقبة نقرأ قوله تعالى على لسان شعيب أيضاً: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾[هود: ٨٩-٩٠].

ولكن العلة كل العلة في أولئك الذين لا همَّ لهم إلا الهدم طاعةً للشيطان، والأهواء، ولأنفسهم الأمارة بالسوء؛ فتراهم يواجهون الكلمة الخيِّرة البنَّاءة، بما يحول دون الإصلاح ودون أن يأخذ طريقه في حياة الناس فيصوِّب الخطأ ويرد المظلمة ويصلح ما فسد.

إن «مدين» ممثّلة في جهلائها وأهل الضلالة فيها: لا تريد أن تعبد الإله الواحد سبحانه؛ لأن في ذلك تركاً لما كان يعبد الآباء والأجداد، ولا تريد أن تلتزم الكسب الحلال في طالب الرزق؛ لأن ذلك في رأي الحمقى أهل الأهواء، حجزاً لحرياتهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون.

ولقد كان أولئك الطغام التافهون مصرِّين على ما هم عليه من هذا الغثاء الجاهلي، ولم يبالوا أن يواجهوا العبد الصالح عليه السلام بذلك علانية ودون تحفظ، مضيفين إلى ذلك مخاطبتهم أياه بلهجة السخرية والاستهزاء من صنيعه، متجاهلين أن من صفته الحلم والرشد لا يفعل ذلك ولا يهبط إلى هذا المستوى. وسبحان من أنعم على أنبيائه بالصبر على أذى الجاهلية بألوانه وصوره وما أكثرها وأوفرها.

قال تعالى حكايةً لما جابهت به «مدين» شعيباً فيما أراد من الإصلاح وإبعادها عن الأذى في الدنيا والعذاب في الآخرة: أي إنك لأنت العاقل للمتصف بالحلم والرشد؟ قال الإمام الرازي في «التفسير الكبير»: كما أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له: هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية، فكذا ههنا.

نعم: لقد قالوها مستهزئين، ويا لله ما أشق طريق المصلحين، ولكنها الطريق التي تغمرهم فيها مرضاة اللّه وتنتهي بالفوز المبين.

وعند الإمام الطبري عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم: يقول ذلك أعداء اللّه على سبيل الاستهزاء قبحهم اللّه، ولعنهم من رحمته وقد فعل وأورد ذلك ابن كثير.

البناء.. وعظة في دعوة شعيب عليه السلام

«٣»

ما أكثر ما يجد الرواد والمصلحون في حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما لقوا من العنت وهم يدعون إلى اللَّه ـ وفي مقدمتهم رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ـ ما يكون مسلاة لهم وشداً لأزرهم فيما يواجهون على طريق البناء الذي لا بد ـ في الأغلب ـ أن يسبقه الهدم، والريادة المثقلة بالواجبات: من صعاب، وما يعترض سبيلهم من عقبات.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: هل يغفل تال متدبرٌ للقرآن الكريم عما أخبر به هذا الكتاب العزيز عن تعنت قوم لوط والمبالغة في أذيته حتى بلغ بهم الشطط الخبيث أن يراودوا النبي الكريم عن رضاه في أن يسيئوا إلى ضيوفه بما لا يليق به والعياذ باللَّه!! ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾[هود: ٧٧-٧٩].

وما أعظم أن يفيد دعاة الإصلاح من هذا الذي يجدون في حياة أولئك الصفوة من البشر؛ فتكون المشقة عاملاً مهماً في تفجير الطاقات وشحذ العزائم. واللَّه في عونهم، ما أخلصوا النية وحرّروا المقصد واستقاموا على الطريقة، بعد الأخذ بالأسباب قدر المستطاع.

ولقد رأينا فيما سبق من الحديث عن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ثُلَّةً من القضايا الكبرى التي دعاهم إليها وهي: عبادة اللَّه وحده لا شريك له واستغفارُه من زلات الأقوال والأفعال، وتجنيبُ المجتمع عوامل التخلخل والفساد ـ فلا يعثون في

الأرض مفسدين ـ خصوصاً ما كان شائعاً فيما بينهم من عدوان القوي على الضعيف، وبخس الناس أشياءهم، وتطفيف المكيال والميزان، وأن يكونوا على حذر من عذاب لله في يوم محيط لا ريب فيه، إن هم أصرُّوا على ما هم عليه من الإعراض عن دعوة الحق والإقامة على الإفساد والتظالم، بله الشرك باللَّه عز وجل.

وكان الرد على دعوة العبد الصالح من وجهين، من الخير تجديد النظر فيهما.

أما أولهما: فيقوم على الاستمساك بالتقليد الأعمى، دونما نظر أو تبصر؛ فهم يأبون عقيدة التوحيد وعبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ لأن ذلك يعني ترك ما كان يعبد آباؤهم من قبل، وهي نقيصة ما بعدها من نقيصة.

وأما الثاني: فهو أنهم يريدون أن يكونوا أحراراً في تصرفاتهم المالية على الوجه الذي يفهمونه من الحرية في هذا المقام؛ ودعوة شعيب إياهم أن لا يبخسوا الناس أشياءهم وأن لا يطففوا المكيال والميزان ولا يعثوا في الأرض مفسدين: تتنافى مع تلك الحرية. وقد بلغ بهم الإصرار على هذا الانحراف المجنح: أن جنحوا إلى الاستهزاء بشعيب في ردهم عليه ـ كما سبق ـ ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴿٨٧﴾﴾[هود: ٨٧].

لقد سمّى هؤلاء العميُ الأمور بغير أسمائها؛ فعبادة اللَّه الواحد انصراف عما كان يعبد الآباء، وذلك انحراف لا يجوز بحالٍ، فكيف يأمر شعيب به؟ والإنصاف في المكيال والميزان، وأداء الحقوق إلى أصحابها، والإقلاع عن الفساد والإفساد: كل أولئك خلائق تنافي حرية التصرف في المال ولو كان مال الآخرين. فكيف ينهى شعيب عن ذلك؟

وإذن فشعيب عليه السلام، هذا الرسول المبلغ عن اللَّه، الذي ما أراد إلا الإصلاح، وتجنيب قومه مزالق الأذى والفساد: يأمرهم بما لا يجوز ـ على زعمهم ـ الأمر به، وينهاهم كذلك عما لا يجوز النهي عنه.

ولعل من الخير أن نستذكر مرة أخرى صورة ما أمر به العبد الصالح على الحقيقة، وما نهى عنه، وصورة ما زينت لهم أهواؤهم وسولت شياطينهم أن يواجهوا به دعوة البناء والفضيلة.

وانظر إلى قولهم:﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ هذا التعريض الماكر الخبيث بالصلاة يراد من ورائه التهوين من أمر الصلة باللَّه من طريق دعوة الحق، والاستمساك بها؛ فلو كانت الصلاة التي يقوم بها شعيب خيراً لما حملته على أن يدعوهم إلى ترك ما كان عليه آباؤهم من الشرك والضلال والانتقال إلى عبادة اللَّه سبحانه وتعالى.

وإنها ـ كما أسلفت من قبل ـ لكلمات تنبئ عما وراءها ـ وما أكثر ما يزخر به واقعنا من ذلك ـ من الدَّخل والجبروت.. ناهيك عن السخرية والاستهزاء.

وأنت واجد أنهم اختتموا قالة السوء بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ على طريق الاستهزاء ـ كما سبق ـ بمحاولة إخضاع التصرف المالي لضوابط تحفظ لكل ذي حق حقه، بصرف النظر عن كون صاحب الحق ضعيفاً أو قوياً.. فكأنهم يقولون: ما دمت ترى ذلك الذي يحول دوننا ودون أن نفعل في أموالنا ما نشاء دون ضوابط: فلا أنت بالحليم ولا أنت بالرشيد؛ فالحلم فيهم والرشد فيهم.

ولكن استهزاءهم المفضوح، لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً؛ لقد استضعفوا نبيهم عليه السلام؛ فبدلاً من أن يتلقوا دعوته بالقبول والاستجابة، واجهوه بهذا اللون من العنت وقلب الحقائق والسخرية اللاذعة، ولكن كان اللَّه لهم بالمرصاد، ومسَّهم من العقاب الصارم ما فيه العبرة للمعتبرين. فليقرأ ذلك دعاة الحق وليسمعوه ويفقهوه بقلوبهم؛ إن نصر اللَّه قادم والعاقبة للمجاهدين الصابرين.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه ما يزال في أنحاء متفرقة من وطننا الكبير: أناسيٌّ هم ـ مع الأسف ـ في فكرهم ومواجهتهم لدعوة الحق التي تهدف إلى تحقيق ما فيه خير الأمة من إقامة صرح الهداية في كل جانب من جوانب الحياة، وإزاحة ركام الضلالة والمضلين عن طريقها..: يمتون بوثيق الصلة إلى ما قالته مدين لنبيها شعيب ولكن تختلف الصور والأساليب.

وإن المعلم القرآني يحمل الرواد والمصلحين إلى ساحة رسم أبعادها المرسلون في قصة هذا الرسول مع قومه. والأمة التي يحمل قرآنها معالم الهداية من حياة هؤلاء البررة عليهم السلام: جديرة أن تنمي في نفوس أبنائها ملكة الإفادة من هذه الهداية والانتفاع بها على الصعيد العملي.

وبناء الأجيال على أصول تلك المناهج أولاً وآخراً مع إدراك معطيات الواقع: غاية أكرم بها من غاية. واللّه يتولى عباده الصالحين الهداة المهديين.

لون آخر.. من قصة شعيب على طريق البناء

«٤»

لقد علمنا القرآن الكثير من قصة شعيب عليه السلام مع قومه، ووقفنا على صورة مشرقة من صدق الرسل عليهم السلام وحرصهم على إنقاذ من يدعونهم من الهلكة: حرصَهم على بناء الإنسان والمجتمع على أمتن الأسس وأقواها، كل هذا مع الذي يلقونه من التعنت والإصرار على الضلالة والفساد، مضموماً إلى ذلك السخرية والتهديد والوعيد.

ولكن الذي رأيناه في رحلتنا مع العبد الصالح وقومه: لم يكن القصة كلها، فقد ودَّعْنا القول عند نهيه لهم على أن يكون بغضهم له حائلاً دون النظر إلى الدعوة نفسها، وما تحمل لهم من الخير لهم في دينهم، وفي دنياهم من ناحية المعتقد ومن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وما يتصل بهما، ودعوته إياهم إلى التوبة والاستغفار، عسى الله أن يتوب عليهم؛ فهو سبحانه الرحيم الودود.

ويمتد رواء المعلم القرآني ليرينا أن القوم ـ مع كل هذا الذي طلع عليهم به شعيب عليه السلام ـ لم يرتدعوا عما هم والغون فيه من الآثام، ولا تزحزحوا إلا قليلاً منهم قيد أنملة عن موقفهم المتشبث بالباطل.

ذلكم قوله تعالى في سورة هود: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[هود: ٩١] يقولون له على وجه الاستهانة والاستضعاف: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به وتكرر قوله فينا. قال الآلوسي في كتابه «روح المعاني»: (جعلوا كلامه المشتمل على الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا تدرك فحواه، مع أنه ـ كما ورد في الحديث الشريف ـ خطيب الأنبياء).

كم هو نابٍ وقاس ذلك الموقف في الميزان الحضاري ـ على الأقل ـ!! داعٍ إلى اللَّه يقيم الدليل على ما يقول، وليس له مطمع شخصي؛ إنه يدعوهم إلى أن يحرروا أنفسهم التي كرمها اللَّه، من قيد الذل بين يدي أوثان لا تضر ولا تنفع، وأن يقلعوا عن هذا العمى في التقليد غير المتبصر للآباء والأجداد، وأن يُزيلوا من المجتمع مظاهر الظلم الاجتماعي، والتناقضات الاقتصادية فيفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يعثوا في الأرض مفسدين.. داع يكون هذا شأنه في استنارة ما يدعو إليه إخلاصه فيه، فيقابل بهذا الإعراض المشين!!

أي شيء يبدو غير مفهوم في كل فقرات هذه الدعوة؛ فهم لا يفقهونه؟! الواقع أن كل شيء مما طلب منهم في غاية الوضوح، ولكنه الهوى وطاعة الشيطان، والعناد الجاهلي، خصوصاً من أصحاب المصالح في ظلم الناس والعدوان على الآخرين، وبخاصة يوم يكون وجودهم مرتبطاً بالفساد وأهل الفساد، فهم يدافعون عن وجودهم المؤذي من خلال حرصهم على الفساد والمفسدين، والطغاة الظالمين.

لقد قالوها هكذا وبدون حياء أو تحفظ: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ في الأولى عجبوا من دعوتهم لترك ما كان عليه آباؤهم من عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع وحجزهم عن الفوضى في أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون؛ لأنهم رأوا في أمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم: حجراً عليهم أن تكون له حرية التصرف في أموالهم، ولم يدعوا أن يكون ردُّهم ساخراً ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

وفي الثانية ـ كما نرى ـ يواجهون القضية بلون آخر من العناد والمكابرة ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ الواقع أن هذه سمَةُ أهل الغفلة ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف: ١٧٩] وقال سفيان الثوري: كان يقال لشعيب: خطيب الأنبياء.

ودائماً يجد المرء في الواقع الذي يظلُّه من الحاضر، قبساً يعينه على فهم الماضي؛ فما يجده اليوم دعاة الحق، والرواد على طريق الأمة في أي ميدان من الميادين، سواء كان ذلك على صعيد الفكر أو الاجتماع أو الاقتصاد، أو غير ذلك: من إعراض، وعرقلة للمسيرة الخيّرة تحت شتى العناوين، يوضح لنا أن مكمن العلة ليس في الدعوة الخيِّرة بما تحمل من عناصر وخصائص، ولا في الداعية ـ غالباً ـ ولا في الأسلوب ـ عموماً ـ ولكن في المكابرين المعرضين أنفسهم.

فالقضية قضية حق وباطل؛ أهل الباطل لا يريدون الحق؛ لأنه يكشف مواقعهم، ويظهر زيفهم كما يكشف النور الظلام وتبصر الاستقامة بالعِوج، فتسقط الأقنعة ويبدو كل واحد منهم على حقيقته كما هو.

ومن أجل ذلك ينتحلون العلل والأسباب من هنا وهناك.

وإذا كان الأمر كذلك: كان لزاماً أن تتضح الصورة عند العاملين، فلا يؤخذوا بظاهر القول ولا بالمصطلحات الزائفة المنسوجة من قبلهم، بل يستمسكوا ـ مع سعة الصدر للحوار والتبيان ـ بالذي يدعون إليه من إصلاح الفرد والمجتمع، وتهيئة المناخ الصالح للبناء الذي يتناول كل الميادين، وينمي مع وضوح الرؤية والثبات على الطريق ملكة الإحساس بما يطرحه المعوقون كالذي فعلت مدين مع شعيب عليه السلام من تعللات وحجج داحضة، ودعاوى هي بالغثاء أشبه.

درس آخر في البناء.. من حياة شعيب عليه السلام

«٥»

في محاولة للاستنارة بقبس من سير بعض الأنبياء عليهم السلام على طريق الدعوة والبناء: كانت لنا وقفات عجلى عند قصة العبد الصالح شعيب مع قومه، هدانا المعلم القرآني من خلالها في سورة «هود» إلى الذي دعا شعيب قومه إليه، وما الذي كان جواب قومه، والطريق التي سلكوها في الردِّ.

ومن قَبلُ وقفنا عند المرتكز الأول لمنهجه عليه السلام في الدعوة كما تنص الآيات، وهو أنه لا يريد أن يخالف قومه إلى ما يدعوهم إليه، وأنه لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ثم قال لهم: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

ونتابع الإشارة فيكاد يعجزنا التسامي النبوي، فلا نرقى إلى تمثُّله كما ينبغي، حيث نقرأ قوله تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٨].

سبحان الذي أعطى أنبياءه كريم العطاء؛ هذه ترجمة لمقولة شعيب التي مرت بنا من قبل ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ إنه يريد أن يبني الإنسان ويجعل منه طاقة فاعلة يتحقق من خلالها الخير لنفسه وللآخرين، ويريد أن يبني المجتمع الأمثل الذي تنعقد لبناته من هؤلاء الأفراد الذين تصوغهم كلمة «لا إله إلا اللّه».

ثم العزم على العمل بمقتضاها طاعة لله، وعملاً على تنقية المجتمع من التظالم، والعدوان على الحقوق، وتمكين أهل الضلالة أن يعيثوا في الأرض الفساد. ولا عليه بعدها أن ينتفع هو أو يضار بدنياه؛ لأنه لا يريد إلا الإصلاح وقد تحقق.

ففي هذه الآية الكريمة يدعو قومه إلى أن لا يحملهم شقاقه ومنازعتُهم إياه وبغضُه على ترك الإيمان والإصرار على ما هم عليه من الكفر، والفساد الاجتماعي الضارب أطنابه، فيكون ذلك سبب غضب اللَّه عليهم فيصيبهم ما أصاب قومَ نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط من النقمة والعذاب؛ فالتمادي في الكفر والضلال بعد أن بلَّغهم العبد الصالح دعوة اللَّه، ونهاهم عن الفساد والإفساد: مدعاة لأن ينزل بهم العقاب الصارم من السماء، وتحلُّ بهم القوارع ويصيبهم اللَّه بعذاب من عنده كما أصاب أولئك الأقوام الذين يعلمون من شأنهم ما يعلمون.

قال الحسن البصري: «لا تحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار» وهذا إجمال تفصيله ما هم عليه من الضلال والتظالم والإفساد كما أوضحت الآيات.

تبارك اللَّه رب العالمين: أيُّ سموّ هذا السموّ، وأي تجردٍ للإصلاح وبناء صرح الحق هذا التجرد.

إن شعيباً عليه السلام يخاف على قومه نقمة اللَّه وعذابه، فهو يصرخ فيهم صرخته الأخيرة، أن ينظروا إلى ما يدعوهم إليه مجرداً عن شخصه هو، وبذلك لا يكون بغضُهم لرسولهم سبباً في النقمة على دعوته، والإعراض عن عبادة اللَّه خالق السماوات والأرض، والإقامة على ما هم فيه من فساد وتظالم.

وهذا يذكرنا بما كان يعاني سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام من عدم إيمان المشركين حزناً على ذلك، كما جاء ذكره في عدد من آي الكتاب الكريم، ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾[الكهف: ٦] إلى أن كان التوجيه إلى أن الهداية بيد اللَّه، وإن عليك إلا البلاغ.

لقد شغلت وصية الإصلاح شعيباً عن نفسه، وصرفته عما بقي من قومه من العنت والاستهزاء، والوعيد.

وهكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام: التطواف من قبل الواحد منهم حول نفسه، لا وجود له في المنهج ـ وهذا فارق ما بين مسلك النبوة ومسلك الزعامة الأرضية التي تثقلها الأهواء ـ إنهم ـ جزاهم اللّه خير الجزاء ـ ينشدون أن يبنوا الفرد والمجتمع على قواعد الخير والفضيلة، وينمّوا منطلقات الهداية، وصنائع التعاون والإحسان. استبدالاً لهذا النور المبصر بما يكون جاثماً على صدر الإنسان ومجتمعه من الظلمات الكثيفة في شتى الأنحاء وبمختلف الصور.

وترى العبد الصالح بعد هذا يخطو الخطوة التي تؤكد التجرد والأخلاق فيما يقوم به من الدلالة على الخير بعد التنبيه على مواطن الأذى ومكامن الفساد، وأنه حريص الحرص كلَّه على أن يقلع قومه عن معاداتهم لله المنعم المتفضل، والحق، ويؤبوا إليه مستغفرين تائبين، كي ينالوا رضاه ـ وهو الرحيم بعباده الودود لهم إن رجعوا عن غَيِّهم ـ ويصرفَ عنهم سوء العذاب.

ذلكم قوله تعالى على لسانه عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠] إنه ـ رحمةً بهم ـ يدعوهم إلى الاستغفار والتوبة بهذا الأسلوب الذي يبدو بحق غايةً في الرقة والترغيب المريح، أن لو أزيلت الغشاوة عن الأعين والران عن القلوب. استغفروا ربكم ـ اطلبوا مغفرته ـ من جميع الذنوب التي أنتم لها مقترفون، وتوبوا إليه توبة صادقة لا تراجع عنها ولا نقض: إن ربي ـ جل شأنه ـ عظيم الرحمة واسعها، كثير الود والمحبة لعباده التائبين المنيبين.

ألا ما أجمل أن يعي الجانحون عظمة هذا التعبير القرآني ويفتحوا له قلوبهم ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بعد طلب الاستغفار والتوبة، ويقدروه قدره، عسى أن يسارعوا إلى العودة إلى باب مولاهم العفو الغفور، والضرع إليه ـ خاشعين خاضعين ـ كي يقبل توبتهم إليه، وخضوعهم بين يديه، فيعفو عن الزلات، ويبدل السيئات حسنات!!

وبعد: فأين هذا الذي أشرق به نهج شعيب وهو على هذه الطريق الشائكة مع قومه الذين قابلوا إحسانه بمنتهى الإساءة ولم يراعوا في التعامل معه ـ وهو يحمل إليهم دعوة الإنقاذ من الهلكة ـ أية رابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان.. أين هذا من صنيع أولئك الذين دأبهم التطواف حول أنفسهم وذواتهم مسدلين على تصرفاتهم ستارة العصمة، والنظر إلى الآخرين من خلال الرغبات الهابطة والأهواء؟!

أما العبد الصالح: فتراه في الخطوات التي سلكها مع أولئك الجفاة، يتصرف وكأن شيئاً من العقوق والإصرار على العداوة والوعيد ـ بله الاستهزاء والسخرية ـ لم يكن ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

إن هذا الذي يرى من صنيع شعيب: هو صورة عملية لسلامة اتجاهه رحمة بمن يدعوهم وحرصاً على هدايتهم ونجاتهم من النار، وهو في بعض وجوهه تسلية وعزاء لرواد الإصلاح في الأمة، ومن نذروا أنفسهم لتجديد الصياغة في بناء الإنسان المسلم على نور من الكتاب والسنة، كما أنه قوة دافعة إلى إنكار الذات والتسامي فوق المعوقات الشخصية؛ كيما تستأثر قضية التغيير الجذري على سلَّم الهداية بالاهتمام، وتستأنف أمتنا طريقتها القرآنية في إحكام البناء المستقل المتميز، وصنع ما يكون امتداداً للحضارة التي ينشدها الإنسان.

من دروس قصة شعيب.. في البناء

«٦»

كان مما دلَّنا عليه المعلم القرآني في سورة (هود) ـ والكلام على قصة شعيب عليه السلام مع قومه ـ ما لجأ إليه القوم في مرحلة من مراحل إصرارهم على الكفر، وعنادهم في قبول ما دعاهم إليه من إصلاح الفساد: ما لجؤوا إليه من دعوى أنهم لا يفقهون كثيراً مما يقول.

وهذا لون من ألوان الهروب من ساحة الحق يلجأ إليه الغافلون، بجانب كونه صورة من صور السخرية والاستهتار! وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾.

والواقع أن الأمر لم يقتصر على ذلك؛ فقد كانت هذه الدعوى بداية التحوُّل إلى التهديد والوعيد، ما دام لم ينفع ما اقترفوه من مواجهة دعوة الصلاح والإصلاح، بالتعجب البارد والاستهزاء المشين، وأن ما يقوله شعيب ـ أو أكثره ـ غير مفهوم.

فهو فيهم ضعيف، ولولا رهطه لرجموه، وليس هو ـ كما يرون ـ بعزيز على الرجم، بل قومه هم الأعزة على زعمهم؛ ذلكم قول اللَّه جل شأنه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

يقولون: إنا لنراك فينا ذليلاً لا قوة لك، لأن عشيرتك ليسوا على دينك، ولولا معزة رهطك علينا لرجمناك بالحجارة، ولست عندنا بعزيز ولا مكرَّم حتى نعفيك من الرجم ولكنا نحن الأعزة!!

ولقد يبدو في كلامهم بعض التناقض؛ فكيف يرونه ضعيفاً، ولولا رهطه لرجموه؟

وجـواب ذلك إمكان القـول بأن الضـعف في نظرهم جـاء من كـون رهطه غيـر مؤمنين به، فهو ذليل لأن عشيرته ليسوا على دينه، وإذن فهو أعزل من سلاح النصرة من الأقربين، ولولا معزتهم عليهم ـ وفق مقاييسهم ـ لقاموا برجمه بالحجارة.. ويا سوء ما يعلنون وما يدبِّرون!!

هكذا استبدل قوم شعيب عليه السلام، الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فلجؤوا إلى التهديد بالرجم بالحجارة كما يُرجم العصاة المخرِّبون، عوضاً عن الحوار الذي تتكافأ فيه الفرص، ويفسح فيه المجال لكل طرف أن يقول ما عنده بحرية، ويقيم الدليل على ما يذهب إليه.

فالرجم: بدل الكلمة الطيبة المنصفة، والساعد الذي يرمي بالحجارة: بدل العقل الذي يفكر والقلب الذي يعي... تماماً كالذي يحدث اليوم لدعاة الحق في دنيا الواقع، على اختلاف أحياناً في الصور والأساليب التي هدى إليها العلم التقني المنفصل عن الخلق، ولم يكن يعرفها أقوام الأنبياء عليهم السلام يومذاك.

وإلى هنا، وما يزال العبد الصالح يفتح لقومه أبواب الهداية بالحكمة المشوبة بالأسى عليهم، أن يصروا على عدم الإيمان، وإتاحة الفرصة لتنقية المجتمع من الفساد.

فهل من سداد الرأي أن يكون رهطه أعزَّ عليهم من اللَّه، فيخافون الرهط والعشيرة، ويقدرونهم حق قدرهم، ولا يخافون اللَّه ولا يرجون له ـ سبحانه ـ وقاراً؟! جاء ذلك في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾[هود: ٩٢].

وأنت واجد أنه يعاتبهم عتاباً هو أشبه بالتوبيخ يقول: أتتركونني لأجل قومي ولا تتركونني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ بمساءة وقد اتخذتم جانب اللَّه وراءكم ظهرياً.

أجل اتخذتموه وراءكم ظهرياً: نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه. قال الإمام الطبري: يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها.

وفي الآية هنا ـ كما ترى ـ إثارةٌ للعقل كي يأخذ حظه من العمل وتدبر ما يقع، وذوق في الخطاب هو منتهى الذوق، وإعلان عن حقيقة موقفهم، وأنهم ـ في محاورتهم البالية ـ لا يرعون لله أمراً، ولا للحق حرمة، وهم يقذفون الكلام على عواهنه من أفواههم.

إنهم يتركون شعيباً بلا رجم لأجل قومه، ولا يتركونه إعظاماً لله تعالى الذي ابتعثه إليهم: أن ينالوا نبيه بمساءة في القول أو الفعل.

وهذا دليل أنهم خاضوا في ظلام المخالفة إلى حد أن اتخذوا جانب اللَّه الذي لا تخفى عليه خافية وراءهم ظهرياً، فنبذوه خلفهم ـ ويا للمقت ـ لا يطيعونه ولا يعظمونه، وذلك منتهى الخبال!!

وانظر إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فهذه الإضافة المحبّبة عند العبد الصالح شعيب، إضافة الرب تبارك وتعالى إلى نفسه﴿إِنَّ رَبِّي﴾ـ وهي تحمل ما تحمل من التشريف للعبد ـ: ملحوظة هنا كما كانت ملحوظة فيما سبق عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ وهو سبحانه يعلم جميع أعمال القوم، فهو بها محيط، وسيجزيهم بها ولا يعجزه شيء.

هذا: وبعد المراحل التي قطعها شعيب مع قومه على طريق دعوتهم إلى الإيمان باللَّه، وإفراده بالعبادة، واستغفاره والتوبة إليه، والعمل على نفي الأذى الجاهلي عن المجتمع، وتنقيته من الظلم الاجتماعي والفساد، وبنائه من جديد على قواعد الخير والهدى.. وما أخذ ذلك من جهد وصبر على صدِّهم ووعيدهم واحتمال لألوان الأذى: استيأس من استجابتهم له، فلم يكن بدٌ من تحديد المسار النهائي، وإعلان كلمة الفصل التي تحمل اللغة المناسبة للمقام بعد هذا كله.

يطالعنا بهذا قول اللَّه جل ثناؤه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾[هود: ٩٣].

إنه الوعيد الصارم بعد استنفاد الوسائل الدقيقة الحكيمة كلها، وبذل كل ما يمكن من جهد وسعة صدر وصبر.

يقول لهم: يا قوم اعملوا على طريقتكم في ركوب متن الضلالة، إني عامل على طريقتي في الدعوة إلى منهج الهدى؛ وإنها لومضة من ومضات السمو في الأسلوب القرآني الذي يأتلف تمام الائتلاف مع مقتضى الحال؛ فكأنه يقول لهم مهدداً متوعداً: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعماية عن الحق، فأنا ثابت على الحق الذي أدعوكم إليه والصبر والمصابرة.

وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه بما صنع وقدّم، ومن هو كاذب مني ومنكم، وانتظروا عاقبة أمركم التي هي الخسران المبين، إني معكم رقيب منتظر.

ولعل من الخير الإشارة إلى أن استمراءَ «مدين» لما هي فيه من الانصياع الجاهلي للهوى والشيطان، وإيغالها في العماية الظالمة دون وضع حدٍ لذلك بالكلمة الفاصلة، والموقف الحاسم: يمكن أن يعود بالمساءة ـ لا عليها فحسب ـ بل على أقوام آخرين؛ لأن في ترك المفسدين وأهل الضلالة ـ بعد كل الذي جرى ـ يسرحون ويمرحون، وهم مجاهرون بالضلالة والعدوان على دعوة الهدى والصلاح وصاحبها: تمكيناً للباطل وسدنته الهدَّامين، وتشجيعاً للآخرين ـ وبخاصة المترددين ـ على نصرته واحتضانه، وتقعيد القواعد لثباته واستمراره!!

ولئن طال الزمان بيننا وبين حقيقة ما كان بين شعيب وقومه ـ وهي حقيقة قرآنية لا يعتري وجوب الإيمان بها غبش ـ إن قضية الإصلاح واحدة في أرومتها وآفاقها ـ من حيث ضرورة الهدم للباطل ورفع قواعد الحق ـ ولكن تختلف بعض الصور باختلاف البيئة والزمان.

وذلك ما يدعو إلى مراجعة جديدة لا تعوزها قوة الإيمان والوعي: لقصص أولئك الرواد عليهم السلام الذين قال اللَّه لنبيه محمد ﷺ ـ وهو خاتمهم وإمامهم ـ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنعام: ٩٠].

ففي اقتفاء آثارهم إخلاصاً وحرصاً على الانتفاع بما حصل لهم على ساحة الصراع بين الحق والباطل: ما يسعف في خطوة إيمانية هادفة لها ما لها من طيب الآثار والتثبيت.

وها نحن واجدون في واقع الأمة ما يذكرنا بما حدث للعبد الصالح وغيره من الرسل عليهم السلام، وهم ينافحون عن الحق بعيداً عن الرغبات الخاصة، ويبذلون قصارى جهدهم في بناء الإنسان المؤمن الصالح بناءً يؤهله لإقامة المجتمع الأمثل المكين.

ويوجب تنمية الإحساس بصنيع أولئك البررة الذين كان نهجهم من الهداية وإليها، إحساساً يدفع إلى العمل ويهوِّن البذل في سبيل اللَّه.

أعداء البناء السليم.. وعاقبة مدين

«٧»

وبلغ السيل الزُّبى، وجاء أمر اللَّه بإهلاك الذين ظلموا من مدين قوم شعيب عليه السلام، أولئك الذين أصروا على الكفر متخذين كلمة الحق وراءهم ظهرياً، عازمين على إلحاق الأذى المهين بنبيهم، بل والقضاء عليه لو أمكنهم ذلك، فحلت بهم النقمة وأخذهم عذاب يوم الظلَّة وفعلت بهم الصيحة ما فعلت وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ونجى اللَّه العبد الصالح ومن آمنوا معه برحمة من عنده؛ فكان ذلك إيذاناً بأحقية ما دعا إليه شعيب عليه السلام، وبطلان ما كان من سفه المعرضين المعاندين.

وفي هذا كله تذكرة لمن أراد أن يتذكّر، وعبرة لمن أراد أن يعتبر؛ ذلكم قول اللَّه تبارك وتعالى في السورة التي نسعد باصطحاب آيها في هذه القصة وهي سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[هود: ٩٤-٩٥].

وهكذا ـ كما تدل الكلمة القرآنية هنا ـ نجّى اللَّه القادر القاهر شعيباً والذين آمنوا معه برحمة من عنده، وأخذت الذين ظلموا ـ بعنادهم وإصرارهم على الكفر البواح والإضرار بالعبد الصالح ومن استجاب لدعوته ـ الصيحة، وأصبح الذين كانوا يهددون ويتوعدون بالأمس: جاثمين في ديارهم موتى هامدين، لا حراك بهم، كأن لم يعيشوا أو يقيموا في تلك الديار أية حقبة من الزمن ولم يدرجوا على أرضها!! قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: (صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم).

والملاحظ أن الأمر لم يقف عند هذا الأخذ الأليم ـ والجزاء من جنس العمل ـ ولكن كان من سخط اللَّه عليهم بما صنعوا أن دعا عليهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ قال الإمام الطبري في «جامع البيان..» (أي ألا أبعد اللَّه مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم).

ومن إعجاز القرآن الحكيم: التعبير بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾عن هؤلاء الذين أصروا على الكفر واتسمت تصرفاتهم بكل ما دلت عليه الآيات الكريمات؛ الأمر الذي يدل على مبلغ ما يعني الظلم في حياة البشرية، وتنوُّع الأبعاد المدمِّرة التي ترتبط به، والآثار المهلكة التي تترتب عليه. كما يدل على أن استحقاقهم ـ بظلمهم ـ نقمة اللَّه وعذابه: أمر يقرر ويؤكد عدل اللَّه في عباده، وحكمته بتوجيههم إلى أن يبتعدوا عن الظلم، ولا يبخلوا على الحق وأهله بمقارعة الظلم والظالمين أهل الباطل في إطار الضوابط السليمة التي تسعف في تحقيق الغاية المرضية لله عز وجل.

ومهما يكن من أمر: فما كان لنا أن نغادر القول في وقائع ما حصل بين نبي اللَّه شعيب مع قومه دون الإشارة إلى أمرين اثنين:

أما أولهما: فضميمتان نجدهما في سورتي الأعراف والشعراء:

أ ـ فقد أضافت سورة الأعراف ـ وهي تتحدث عن صنيع مدين مع العبد الصالح: أن أهل الضلالة المستكبرين توعدوا بإخراج شعيب والذين آمنوا معه من قريتهم إن لم يعودوا في ملَّتهم؛ فليس أمام الطائفة المؤمنة إلا الهجرة من القرية بتهجير أولئك العتاة الظالمين، أو العودة في ملة الكفر ونهج الكافرين والعياذ باللَّه؛ ذلكم قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأعرف: ٨٨].

إنه يذكرهم بما يجب من حرية الفكر والقول؛ فلا يجوز لهم أن يقضوا على تكافؤ الفرص في ذلك، ويستخدموا القوة بدل الإقناع بإقامة الدليل، فيخرجوهم من قريتهم ومنازلهم وهم كارهون؛ فكأنه يقول لهم: أوَتخرجوننا ولو كنا كارهين لهذا الإخراج غير راضين به، لما فيه من الظلم والعدوان على الحرية؟!!

وهذا الذي رسمه المعاندون الظالمون لأنفسهم وللحق: أباه شعيب عليه السلام أشد الإباء ـ وهذا منه لا غرابة فيه ـ وعجب من ذاك الهراء أشد العجب، وأعلن في الناس ثباته الصارم وثبات الذين آمنوا معه على الدين الحق؛ لأنه المخالفة عن ذلك افتراءٌ على اللَّه الكذبَ، كما أعلن توكُّلهم جميعاً على اللَّه، فهو حسب المؤمنين الصابرين؛ صحب ذلك دعاء غايةٌ في العبودية والميل العميق إلى النصفة حتى مع الأعداء المعاندين.

نقرأ ذلك فيما حكى القرآن على لسانه في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأعراف: ٨٨].

ولم يعبأ شعيب ـ وهو الصادق المتوكل على اللَّه ـ باللون الآخر من وعيد أعدائه وتخذيلهم حين رتبوا الخسران على اتباعه عليه السلام؛ ذلك اللون الذي كان آخر سهم في جعبة من ضربت العماية على قلوبهم بالأسداد، وتأبَّوا ـ مهملين عقولهم ـ على كل ما هو هداية وحق؛ يطالعنا بذلك قوله تعالى في الآية التي تلي: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[الأعراف: ٩٠].

ولا ينقضي عجبك من حسن التأتي عند شعيب عليه السلام وجميل اللطف في المحاورة والتوجيه؛ وهو ما نبَّأت به الآية السابعة والثمانون التي سبقت الآيات الثلاث الآنفة الذكر من سورة الأعراف في قول اللَّه جل ثناؤه: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأعراف: ٨٧].

هذا ما يقوله عليه السلام ـ بكل وضوح وصفاء ـ إن كان فريق منكم صدَّقوا بما جئت به من الحق، وفريق لم يصدِّقوا فاصبروا ـ والخطاب لمدين وما أدراك ما تصنع مدين ـ حتى يفصل اللَّه بحكمه العدل بيننا وهو خير الفاصلين.

ولقد استوقف هذا الأسلوب العلماء المحققين؛ فكشف بعضهم عن حسنه وما يحمل من التلطُّف في المحاورة. قال أبو حيان في «البحر المحيط»: هذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة؛ إذ برز المتحقَّق في صورة المشكوك فيه، وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين:﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأعراف: ٨٨] وهو أيضاً من بارع التقسيم؛ إذ لا يخلو قومه من القسمين.. فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجة الصبر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار.

ب ـ وتطلع علينا سورة الشعراء بحلقات أخر من سلسلة الحجج التي لا أوهى منها في هذا الباب، وهي أنهم يعتقدون أن شعيباً سُحر كثيراً حتى غُلب على عقله فجاءهم بما يدعوهم إلى الإيمان وترك الكفر، ثم إنه بشرٌ مثلهم، فهو إنسان كباقي الأفراد وليس رسولاً ـ على زعمهم ـ. وبعد هذا كله: لم يستحيوا أن يقولوا له: ما نظنك إلا تتعمد الكذب فيما تقوله وتدعيه، لا أن اللَّه أرسلك إلينا. انظر إلى قوله تعالى في ذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾[الشعراء: ١٧٦-١٨٦].

وأما الأمر الثاني: فهو أن الصيحة التي ذكرت في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[هود: ٩٤-٩٥] هي مظهر من مظاهر نقمة اللَّه عليهم، وإلا فهناك مظهران آخران عرضت لهما سورتا الأعراف والشعراء؛ إنها قوارع عدة نزلت بهم جزاء ظلمهم وبغيهم؛ فمع الصيحة: الرجفة وعذاب يوم الظلة؛ فهم أمة واحدة اجتمعت عليهم تلك النقم كلها.

ففي سورة الأعراف ذكرت الرجفة، وفي سورة الشعراء ذكر عذاب يوم الظلة، وفي سورة هود ـ كما أسلفنا ـ ذكرت الصيحة.

قال تعالى في سورة «الأعراف» ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢].

ونقرأ في سورة «الشعراء» ما تلا آيات سبق ذكرها وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧-١٨٩].

وكان ذكر الصيحة في الآية الرابعة والتسعين من سورة «هود» كما جرى التنويه بذلك غير مرة.

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير رحمه اللَّه في تعليل ما جرى عليه الأسلوب القرآني من تعدد صفة العقاب الإلهي لمدين: من أنه جارٍ على التناسب بين صفة النقمة وبين كلام الكفار وما كان يصدر عنهم من التصرُّف؛ فقد ذكر اللَّه تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن: كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق.

ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فأرجفوا بنبيِّ اللَّه ومن معه، فأخذتهم الرجفة.

وفي سورة هود قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي اللَّه في قولهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧] قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء؛ فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الآية.

وههنا ـ في سورة الشعراء ـ قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾الآية على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنه: «إن اللَّه سلَّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن اللَّه تعالى أنشأ لهم سحابة - وهي الظُّلة- فانطلق إليها أحدهم فاستظلَّ بها، فأصاب تحتها، فأججت عليهم ناراً». وهكذا روى الإمام الطبري عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم.

وقال محمد بن كعب القرظي: «إن أهل مدين عُذِّبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها؛ فلما خرجوا منها: أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا البيوت فتسقط عليهم، فأرسل اللَّه عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس؛ فدخلوا تحتها جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً، ثم تلا محمد بن كعب:﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾».

وروى شيخ المفسرين بسنده عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما ما يقارب ذلك.

تلك كانت عاقبة هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة والمجتمع، وتمرَّدوا على الكلمة الهادية تخرجهم من الظلمات إلى النور، حين وقفوا بعناد وإصرار في وجه دعوة الخير، ومنهج واحد من رسل اللَّه في البناء الصالح النافع للفرد والجماعة؛ حيث ينتفي بذلك الخضوع لغير اللَّه، ويُنقَّى المجتمع من المظالم التي كانت مطبقة عليه.

وإذا لم يكن صنيع هؤلاء المستكبرين على الحق وأهله من الظلم: فأي شيء يكون؟!

من أجل هذا أعطاهم القرآن - فيما أعطى من صفاتهم - هاتين الكلمتين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾عنواناً على كل ما صنعوا - وقد أشرت من قبل إلى وجه الإعجاز في ذلك -. وكان من نقمة اللَّه عليهم بذلك ما كان.

وللظالمين في الآخرة ما هو أشد وأنكى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾[إبراهيم: ٤٢-٤٣] قال ميمون بن مهران - كما روى الإمام الطبري -: «هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم».

والحق أن هذه النقمة الإلهية ـ وما كان من ألوان العذاب فيها ـ على هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للشيطان والهوى، فاتخذوا أوثاناً يعبدونها من دون اللَّه، وأصروا على ارتكاب المظالم والفساد في الأرض، ناهيك عما درجوا عليه من السخرية والاستهزاء بالداعي إلى اللَّه فيهم، وتهديده ومن آمن معه بمزيد من الأذى والفتن عن الدين.. الحق أن هذه النقمة رافد عظيم من روافد الخير؛ يشحذ هممهم العاملين، ويزيد من يقين من تؤرقهم هموم الأمة وواقعها الأليم: أن اللَّه لا بد ناصرهم إن نصروه، ثباتاً على الحق، واستعلاءً على الرغب من داخل النفس، وعلى الرهب تنفثه صدور المخالفين المعاندين.

وثمن ذلك دائماً أن ينمي هؤلاء ـ الذين أكرمهم اللَّه بالريادة على الطريق المحفوفة بالمكاره ـ في أنفسهم، روح الصدق والإخلاص لله تبارك وتعالى، وأن تظل قلوبهم موصولة به سبحانه، وأن يضعوا نُصب أعينهم ـ وعلى درجة غاية في اليقين ـ أن ما لهم عند اللَّه من الأجر والمثوبة، والعطاء غير المحظور ـ (وما كان عطاء ربك محظوراً) ـ أكبر وأعظم مما قد ينالهم من أذى الظالمين المعاندين للحق، مهما بلغ من عتوهم واستكبارهم وإصرارهم على إلحاق الأذية ـ بشتى ألوانها وصورها ـ بهم.

ومما لا يرتاب فيه منصف أن الذين تبنى شخصياتهم على هذا المنهج المشرق الوضاء، وتنمو بين جوانحهم هذه المشاعر، ويتقدمون إلى ساحة الهدم للباطل، ورفع صروح الحق بكفاياتهم ومهاراتهم المطلوبة على صعيد الأخذ بالأسباب؛ علماً وعملاً وانتفاعاً بمعطيات التاريخ والوقائع: هم الصالحون لأن يؤتمنوا على تحديد الطريق ومن أين تكون نقطة البدء في طي المسافة بين الواقع، وبين ما يجب أن يكون.

ولقد طال انتظار الأمة ـ وهي تعض على جذع النوائب والتقلبات ـ لشباب ينتمون إلى الجيل القرآني، يتخطون بها الصعاب بمنهجية وصدق جهاد وبذل، ويسيِّرون طاقاتها وإمكاناتها في قنوات تؤتي ـ بإذن اللَّه ـ أفضل النتائج وأينع الثمرات.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه، ويقف المدُّ الإسلامي ليملي على التاريخ كلمته الحقَّة الفاصلة من جديد.